OPEN ACCESS
MA'ARIF-E-ISLAMI (AIOU)
ISSN (Print): 1992-8556
mei.aiou.edu.pk
iri.aiou.edu.pk

تأثير العلامة الزمخشري في كتب التفسير البياني: دراسة في التفسير البيضاوي، تفسير أبي السعود وتفسير روح المعاني

(The Role of Al-Zamakhshari in Tafsir Bayani A Case Study in al-Byzavi, Abu al-Saood and Rooh al-Maani)

* **الدكتور حافظ محمد أيوب السعيدي**
أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية - إسلام آباد .
** **الدكتور حبيب الله خان**
أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية، و(منسق مركز اللغة العربية للناطقين بغيرها)، الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد.

ABSTRACT

Most of the modern explainers of the holy Quran are influenced by Allama Zimakhshari in the eloquent explanation for the holy Quran, because of his mastery and depth in Eloquence, and the most prominent of them is Qazi Albaidhawi and Allama Abu Saud and Imam Aloosi.

Allama Zimakhshari wrote his Quranic explanation before the compilation of terminologies of eloquence and this is the era, which was called the era of taste and quality by the later scholars of eloquence.

It is clear that the earlier scholars of eloquence concentrated sharply on the eloquence of the holy Quran. So they derived the meanings and deducted denotation through the eloquent coherence, fertilization and correlation between a verse and other verses, between two verses and their sisters and among the verses and their sisters, and with this they knew that the eloquence reached the position where no kind of human discourse reached. The most prominent examples in this context are the two books of Imam Abdul Qahir Aljurjani, he is considered Imam of Arabic Eloquence near the majority. So the later scholars like Allama Zimakhshari, Assakkaki, Al Qazwini and others followed him. Then many great scholars like Imam Attayyibi were influenced by these scholars.

Thus Al-Kashaf became the reference book for the general and specialists. So everyone who came after him referred to it in the explanation of the Book of Allah and its eloquence. So the researcher considered in his research the influence of Zimakhshari in Al Tafsir Al Baidhawi, Abi Al Saud and Roohul Ma'any in many chapters of the Rhetoric by proving by the quotations from the said explanatory books.

ثمة كثير من المفسرين المتأخرين الذين تأثروا بالعلامة الزمخشري، وعلى رأسهم القاضي البيضاوي، والإمام الآلوسي، والعلامة أبو السعود. والسبب الرئيس في تأثير العلامة الزمخشري في العلماء الكبار من المتأخرين هو براعته وكماله وإتقانه وتفوقه وتمعُّنه في علم البلاغة ما جعله أن تميَز وتفوَق في مجاله وفاقَ نظراءَه في ذلك، والذين جاءوا بعده فاعترفوا بقدره ومكانته ومنزلته في البلاغة العربية ولا سيما البلاغة القرآنية، وقد تكلم العلماء عن بلاغة النظم القرآني قبل أن توضع المصطلحات البلاغية، وقاموا بمقارنات عديدة بين بلاغة كلام العرب وبلاغة كلام الله - عز وجل - فوصلوا من خلال دراساتهم النقدية والنظرية والتطبيقية إلى النتائج التي صارت مؤخرا

أغراضا بلاغية وأسرارا بلاغية عند منظِّري البلاغة العربية، والأمر في صغيره وكبيره كان يعود إلى جمال الصياغة ودقة التعبير ولطافة المغزى ورقة المرمى، والعصر الذي عرف البلاغة التطبيقية قبل البلاغة التنظيرية قد سماه المتأخرون بعصر الذوق والسليقة والطبيعة، من كان يسمع قصيدة وإن لم يكن يعرف عن المصطلحات البلاغية الرائجة اليوم كان يستطيع أن ينقد ما يسمعه على أساس الذوق الحي، ويميّز بين الخطأ والصواب، ويدرك الأبعاد الفنية للقصيدة من مجرد سماعه لها على أساس الذوق القوي لديه.

وهذه الطبيعة الخالصة والسليقة الشفافة والذوق الرقيق جعلهم يتفننون الكلام ويفطون إليه حيث يدركون المعنى والمقصَد منه، ويعرفون مخلوطه من غيره، ومغشوشه من خالصه، لما رأى هؤلاء بلاغة القرآن الكريم فأدركوا معانيه ومقاصده وطاب لهم ذلك عرفوا أنه ليس من كلام البشر، آمن منهم من لزم صحبة النبي - صلوات الله وسلامه عليه - وعكف على القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار، فأول من فسر القرآن الكريم من صحابة رسول الله - عليه الصلاة والسلام - هو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ثم تبعه التابعون فمن وليهم مثل عروة بن الزبير والحسن البصري وأبي عمرو بن العلاء وغيرهم. وأول كتاب وصلنا في الباب هو كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة، وعالج الجاحظ بلاغة أساليب الكلام وفنونه وفتح باب البيان القرآني وتحدث عنه بما صار مؤخرا مصدرا الكل من تلاه، وكذلك تعرض ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" كثيرا من وجوه البيان، يقول في مقدمته: "وللعرب المجازات في الكلام ومعناها: طرق القول ومآخذه، ففيها: الاستعارة والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الأثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة ستراها في "أبواب المجاز" إن شاء الله تعالى. وبكل "هذه المذاهب" نزل القرآن؛ ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نُقل الانجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وتُرجمت التوراة والزبور، وسائر كتب الله بالعربية؛ لأن "العجم" لم تتسع في "المجاز" اتساع العرب"[1].

ومن الواضح أن الأوائل من علماء البلاغة والبيان ركزوا تركيزا شديدا على بلاغة كلام الله - جل وعلا - أمضى القرآن الكريم منوطا بتفسيراتهم البيانية، قاموا باستخراج المعاني واستنتاج الدلالات من خلال الترابط والتلاقح والتداخل البياني بين الآية والأخرى، بين الآيتين وأختيها، بين الآيات وأخواتها، وبذلك عرفوا أن البلاغة بلغت مبلغها حيث لا يبلغه شيء من كلام البشر، وعلى رأس هذه الطبقة العليا الرماني والباقلاني والخطابي وأمثالهم.

ومن أبرز النماذج في هذا الباب كتابا الإمام عبد القاهر الجرجاني صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، إنه يُعَدّ لدى الجماهير إمام البلاغة العربية، فاحتذاه المتأخرون في علم البلاغة مثل العلامة الزمخشري ثم السكاكي والخطيب القزويني وغيرهم. ثم تأثر بهؤلاء كثير من العلماء الكبار مثل الإمام الطيبي.

صار الكشاف للعلامة الزمخشري مرجع العامة والخاصة، فكل من جاء بعده أحال إليه في تفسير كتاب الله تعالى وبلاغته، مثل ناصر الدين البيضاوي وأشباهه، إنه رجع في كثير من مسائل البلاغة والبيان في تفسيره الموسوم بالتفسير البيضاوي إلى الكشاف، وهذا ما ذكره حاجي خليفة في

"كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" قائلا: "وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن غني عن البيان، لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات، وضم إليه ما ورى زنادفكره من الوجوه المعقولة والتصرفات المقبولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، ولكونه متبحراً جال في ميدان فرسان الكلام فأظهر مهارته في العلوم حسبما يليق بالمقام، كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة، وملح الاستعارة، وهتك الأستار الأخرى عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها، وترجمان الناطقة وبنانها فحل ما أشكل على الأنام، وذلّل لهم صعب المرام، وأورد في المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة وأوضح له مناهج الأدلة"[۲].

طالما يشعر القارئ بالغموض والإبهام والخفاء عند القراءة في تفسير البيضاوي، لأنه أوجز كلام العلامة الزمخشري في نقل مسائل البيان، ومن أجل ذلك اضطر العلماء إلى وضع الشروح والحواشي وحواشي الحواشي عليه نحو الخفاجي وعبد الحكيم السيالكوتي وغيرهما، وسآتي ببعض النماذج تُبَلوِرُ تأثرَ البيضاوي بالعلامة الزمخشري.

وجاء بعد البيضاوي العلامة أبو السعود العمادي، وهو أحد جهابذة المفسرين البلاغيين، قال صاحب "الفوائد البهية في تراجم الحنفية" في ترجمة العمادي: إنه "شيخ كبير، عالم نحرير، لا في العجم مثيل، ولا في العرب له نظير، انتهت إليه رياسة الحنفية في زمانه، وبقي مدة العمر في الجلالة وعلو الشأن، وكان يجتهد في بعض المسائل ويخرج ويرجح بعض الدلائل، وله في الأصول والفروع قوة كاملة، وقدرة شاملة، وفضيلة تامة، وإحاطة عامة"[۳].

وقال صاحب "العقد المنظوم" في بيان علمه وفضله: "كان رحمه الله من الذين قعدوا من الفضائل والمعارف على سنامها وغاربها، وضربت له نوبة الامتياز في مشارق الأرض ومغاربها. وتفرد في ميدان فضله فلم يجاره أحد، وضاقت عن إحاطته صدور الحق والحد، وحصل له من المجد والإقبال والشرف والإفضال فلا يمكن شرحه بالمقال"[٤].

استوعب العمادي كل ما جاء في المتون والشروح والفنون في تفسيره الزاخر، فدرس في الكشاف والبيضاوي، وجمع بين دفتي تفسيره كلّ ما دَرَسَ، وفَهِمَ، ووَعَى من التفاسير السابقة متأثرا بالعلامة الزمخشري والقاضي البيضاوي وغيرهما إلا أنه لم يقلد السابقين تقليدا محضا بل أضاف إلى كلامهم نكتا لطيفة تقوم على أسس النحو والمنطق وغيرهما من الفنون الأخر. قال صاحب "التفسير والمفسرون" موضحا ذلك: "وهو مولع كل الولوع بالناحية البلاغية للقرآن فهو يهتم بأن يكشف عن نواحي القرآن البلاغية، وسر إعجازه في نظمه وأسلوبه، وبخاصة في باب الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والاعتراض والتذييل، كما أنه يهتم بإبداء المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها، مما لا يكاد يظهر إلا لمن أوتي حظاً وافراً من المعرفة بدقائق اللغة العربية، ويكاد يكون أول المفسرين المبرزين في هذه الناحية"[٥]. على كل حال، فإنه تأثر بالعلامة الزمخشري في مسائل البلاغة والبيان.

ومن العلماء الذي صنفوا تفسيرا بيانيا هو الإمام شهاب الدين السيد محمود أفندي الآلوسي البغدادي، قال صاحب "التفسير والمفسرون" في ترجمة الإمام الآلوسي: "كان رحمه الله شيخ العلماء في العراق، وآية من آيات الله الفطام، ونادرة من نوادر الأيام، جمع كثيرا من العلوم

حتى أصبح علامة في المنقول والمعقول، فهامة في الفروع والأصول، محدثا لا يجارى، ومفسراً لكتاب الله لا يبارى"[٦].

أتقن الإمام الآلوسي علوم العربية وبخاصة النحو العربي والبلاغة العربية وكان يعلم الشعر الفارسي وآدابه، فاستخرج المعاني النفيسة من الآي القرآنية واستوضح بلاغتها من خلال المقارنة بين النصوص الأدبية في المعاني والتراكيب والنكت والمعارف.

استفاد الإمام الآلوسي من التفاسير المقدّمة في تفسيره؛ روح المعاني، مثل تفسير ابن عطية، وتفسير أبي حيان، وتفسير العلامة الزمخشري، وتفسير أبي السعود، وتفسير القاضي البيضاوي، وتفسير الفخر الرازي، وغيرها. وعلى الرغم من سعة الاستفادة والإفادة إنه تأثر بالعلامة الزمخشري في معظم مسائل النحو والبيان.

تأثر القاضي البيضاوي بالعلامة الزمخشري

التقديم والتأخير في الشكر والإيمان؛ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ

قال القاضي البيضاوي في تفسير آية من سورة النساء وهي: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[٧] "إنما قدم الشكر لأن الناظر يدرك النعمة أولاً فيشكر شكراً مبهماً، ثم يمعن النظر فيعرف المنعم فيؤمن به"[٨].

درس القاضي البيضاوي المعنى نفسه بطريق مفصل قائلا: "فإن قلت: لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت: لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع، فيشكر شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكراً مفصلاً، فكان الشكر متقدماً على الإيمان، وكأنه أصل التكليف ومداره"[٩].

التعريف بأل للعهد والتنكير بأل للجنس؛ الكِتَابَ والكِتَابِ

وقال في باب التعريف والتنكير في تفسير آية من سورة المائدة، وهي: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ...الآية﴾[١٠]

"وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق" أي القرآن. "مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب" من جنس الكتب المنزلة، فإن اللام الأولى للعهد والثانية للجنس"[١١].

وهذا ما جاء به العلامة الزمخشري فبسط المسألة برمتها قائلا: "فإن قلت: أيُّ فرق بين التعريفين، في قوله: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب)، وقوله: (لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب)؟ قلت: الأول تعريف العهد؛ لأنه عنى به القرآن. والثاني: تعريف الجنس؛ لأنه عنى به جنس الكتب المنزلة. ويجوز أن يقال: هو للعهد؛ لأنه لم يرد به ما يقع عليه اسم الكتاب على الإطلاق، وإنما أُريد نوع معلوم منه، وهو ما أُنزل من السماء سوى القرآن"[١٢].

توافق نصان؛ نص العلامة الزمخشري ونص البيضاوي، وهذا التوافق يعني تأثر المؤخر بالمقدم إلا أن كلام العلامة الزمخشري أكثر وضوحا، لأنه ذكر وجهين؛ أل العهدية، وأل الجنسية في "الكتاب" الثاني، وأل العهدية في "الكتاب" الأول. أما البيضاوي فلم يذكر إلا وجها واحدا وهو "أل الجنسية" في "الكتاب" الثاني مقارنة بينه وبين "الكتاب" الأول.

الفائدة من تقييد العموم؛ "صَالحا" بـ "غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ"

فسَر القاضي البيضاوي قولَه تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾[١٣] قائلا: "وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح والآن تحقق لهم خلافه"[١٤].

أوضح العلامة الزمخشري ذاك المعنى بأسلوب رصين وجزيل قائلا: "فإن قلت: هلا اكتفى بـ "صالحا" كما اكتفى به في قوله تعالى: "فَارجِعنَا نَعمَل صَالحاً"؟، وما فائدة زيادة "غير الذي كنا نعمل" على أنه يؤذن أنهم يعلمون صالحاً آخر غير الصالح الذي عملوه؟ قلت: فائدة زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به. أما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي، لأنهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة، كما قال الله تعالى: "وَهُم يحسَبُونَ أَنَّهُم يحسِنُونَ صُنعاً" فقالوا: أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نحسبه صالحاً فنعمله"[١٥].

أسلوب العلامة الزمخشري أكثر وضوحا وتفسيرا من أسلوب القاضي البيضاوي، لأنه صرح بالآية الأخرى التي احتج بها في توضيح المعنى والدلالة، وهي قوله تعالى: "فَارجِعنَا نَعمَل صَالحاً"، ثم دفع الوهم مستشهدا بقوله تعالى: "**وَهُم يَحسَبُونَ أَنَّهُم يُحسِنُونَ صُنعاً**".

الذكر والحذف؛ الشرط وجوابه

تأثر القاضي البيضاوي بالعلامة الزمخشري في مسألة الذكر والحذف في تفسير آية من سورة يونس وهي: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾[١٦] فسَر القاضي البيضاوي الآية قائلا: "أيُّ شيء من العذاب يستعجلونه، وكله مكروه لا يلائم الاستعجال، وهو متعلق بـ "أَرَءيْتُمْ"؛ لأنه بمعنى أخبروني، و "المجرمون" وضع موضع الضمير للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء الوعيد لا أن يستعجلوه، وجواب الشرط محذوف، وهو تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا خطأه، ويجوز أن يكون الجواب ماذا، كقولك: إن أتيتك ماذا تعطيني؟ وتكون الجملة متعلقة بـ "أَرَءيْتُمْ"، أو بقوله: "**أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءامَنْتُمْ بِهِ**" بمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، و "ماذا يستعجل" اعتراض، ودخول حرف الاستفهام على "ثم" لإنكار التأخير"[١٧].

هذا الذي ذكره العلامة الزمخشري "فإن قلت: بم تعلق الاستفهام؟ وأين جواب الشرط؟ قلت: تعلق بـ "أرأيتم"؛ لأنَّ المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون، وجواب الشرط محذوف وهو: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه"[١٨].

على الرغم من التوافق والتطابق بين نصي القاضي البيضاوي والعلامة الزمخشري فإنه الثاني أثر في الأول، اللهم إلا كلام العلامة الزمخشري مختصر وموجز، بينما كلام القاضي البيضاوي فإنه مفصل ومدلل لاحتوائه عددا من الوجوه.

تأثر أبي السعود بالعلامة الزمخشري

الفصل والوصل في الآية؛ الأول: أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ، والثاني: مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ

قال أبو السعود في تفسير آية من سورة الأعراف وهي: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[١٩] "والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير، وتشديد التوبيخ، والتقريع، فإن مباشرة القبيح قبيحة، واختراعه أقبح، ولقد أنكر الله - تعالى - عليهم أولاً إتيانَ الفاحشةِ، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها، فإن سبك النظم الكريم وإن كان على نفي كونِهم مسبوقين من غير تعرّضٍ لكونهم سابقين، لكن المراد أنهم سابقون لكل من عداهم من العالمين، كما مر تحقيقه مراراً في نحو قوله - تعالى -: "ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً" أو مسوقةٌ جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل من جهتهم: لم لا نأتيها؟ فقيل بياناً للعلة وإظهاراً للزاجر: ما سبقكم بها أحدٌ لغاية قُبحها وسوءِ سبيلها فكيف تفعلونها؟"[٢٠].

وقال العلامة الزمخشري تفسيراً لهذه الآية الكريمة: "فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أوّلاً بقوله: "أَتَأْتُونَ الفاحشة"، ثم وبخهم عليها، فقال: أنتم أوّل من عملها، أو على أنه جواب لسؤال مقدّر، كأنهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به"[٢١]. وُجِدَ التماثل الشديد في المعنى عند العلامة الزمخشري وأبي السعود ما يدل على تأثر المؤخر بالمقدم، وأسلوب أبي السعود أوفى وأقرب إلى المراد من أسلوب العلامة الزمخشري.

التعريف والتنكير؛ كلمة "مَاءٍ"

تأثر أبو السعود بالعلامة الزمخشري في تفسير قوله –تعالى-: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢٢] فسَر أبو السعود الآية قائلا: "هو جزءٌ مادته أو ماء مخصوص هو النطفة فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل؛ لأنّ من الحيوانات ما يتولّد لا عن نُطفةٍ، وقيل: من ماءٍ متعلِّق بـ"دآبةٍ" وليست صلةً لخلَق"[٢٣].

وهذا الذي ذكره العلامة الزمخشري فقال: "فإن قلت: لم نكَّر الماء في قوله: "مِّن مَّآء"؟ قلت: لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء مختصّ بتلك الدابة، أو خلقها من ماء مخصوص، وهو النطفة، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة، فمنها هوام، ومنها بهائم، ومنها ناس. ونحوه قوله - تعالى -: "يُسقى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأكل"[٢٤].

تحدث أبو السعود عن الوجهين في تنكير كلمة "ماء"، وذكرهما بالإيجاز، أما العلامة الزمخشري فذكر ذينك الوجهين بشيء من التفصيل والوضوح ما يدل على تأثير أبي السعود به.

الحذف والذكر في "إِذْ جَاءَهُمْ"

قال أبو السعود في باب الحذف والذكر في تفسير آية من سورة الإسراء وهي: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى

مَسْحُورًا﴾[۲۵] "إِذْ جَاءهُمْ" متعلق بقلنا، وبـ "سأل" على القراءة المذكورة، وبـ "آتينا"، أو بمضمر هو يخبروك، أو اذكر على تقدير كون الخطاب للرسول -عليه الصلاة والسلام-"[۲۶].

هذا هو المعنى الذي أخذ من العلامة الزمخشري، إنه وضح المسألة قائلا: "فإن قلت: بم تعلق "إذ جَاءَهُم"؟ قلت: أمّا على الوجه الأول فبالقول المحذوف، أي فقلنا له: سلهم حين جاءهم، أو بـ "سأل" في القراءة الثانية، وأمّا الأخير فبآتينا، أو إضمار اذكر، أو يخبروك، ومعنى "إِذ جَاءَهُم" إذ جاء آباءهم"[۲۷].

التشبيه في الآية بـ "مَثَلَ" و "كَمَثَلِ"

قال أبو السعود مفسرا معنى الآية من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[۲۸] "إِنَّ مثَلَ عيسى" أي في شأنه البديع المنتظم لغرابته في سلك الأمثال "عَندَ الله" أي في تقديره وحكمه "كَمَثَلِ آدَمَ" أي: كحاله العجيبةِ التي لا يرتاب فيها مرتاب، ولا ينازع فيها منازع "خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ" تفسيرٌ لما أُبهم في المثل، وتفصيل لما أُجمل فيه، وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما، وحسم لمادّة شبهة الخصوم، فإن إنكار خلق عيسى -عليه الصلاة والسلام- بلا أب ممن اعترف بخلق آدم -عليه الصلاة والسّلام- بغير أب وأم مما لا يكاد يصح، والمعنى: خلق قالبه من تراب"[۲۹].

أما العلامة الزمخشري ففسّر ذلك بما يلي: "فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو بغير أب، ووجد آدم بغير أب وأم؟ قلت: هو مثيله في أحد الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به، لأنّ المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف؛ ولأنه شبه به في أنه وُجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب، فشبه الغريب بالأغرب؛ ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه"[۳۰].

تأثر الإمام الألوسي بالعلامة الزمخشري

الأول: الفصل والوصل

تأثر الإمام الآلوسي بالعلامة الزمخشري في باب الفصل والوصل وقال في تفسير آية من سورة المائدة وهي ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[۳۱] "جواب قسم محذوف سادّ مسد جواب الشرط على ما قاله أبو البقاء، والمراد من الذين كفروا إما الثابتون على الكفر كما اختاره الجبائي، والزجاج، وإما النصارى كما قيل، ووضع الموصول موضع ضمير "هم" لتكرير الشهادة عليهم بالكفر"[۳۲]. ذكر العلامة الزمخشري ذلك بكل وضوح وتفصيل، وقال: "فإن قلت: فهلا قيل: ليمسهم عَذَابٌ أَلِيمٌ؟ قلت: في إقامة الظاهر مقام المضمر فائدة وهي تكرير الشهادة عليهم بالكفر في قوله: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا" وفي البيان فائدة أخرى وهي الإعلام في تفسير "الذين كفروا منهم" أنهم بمكان من الكفر؛ والمعنى: ليمسنّ الذين كفروا من النصارى خاصة"[۳۳].

عبارة العلامة الزمخشري أكثر وضوحا وتفسير اللمعنى الذي في الآية من عبارة الآلوسي، إلا أن الآلوسي قد تأثر بالعلامة الزمخشري في تفسير الآية ولا سيما المعنى الذي ينبعث من إقامة

الظاهر مقام المضمر. لم يرجع العلامة الزمخشري إلى الآخرين في تفسير الفائدة ولازم الفائدة بل اكتفى بإيضاح الدلالة من خلال ضابطة الإظهار موضع الإضمار. أما الآلوسي فإنه أحال كلامه إلى كثير من السابقين فكأنه اعتمد عليهم في توضيح معنى الآية، فعبر عن الإظهار بـ"الموصول" والإضمار بـ"الضمير" باختصار، ففي عبارته شيء من إجمال أو غموض.

صرح الإمام الآلوسي بما جاء العلامة الزمخشري حيال الفصل والوصل في تفسير آية من سورة الأعراف: ﴿**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ**﴾[٣٤] قائلا: "وفي الكشاف أن جملة "لم يدخلوها" الخ، لا محل لها؛ لأنها استئناف كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل: "لم يدخلوها وهم يطمعون" وجوز أن يكون في محل الرفع صفة لرجال وضعف بالفصل"[٣٥].

إنه نقل رأي صاحب الكشاف، ولم يرد عليه بشيء، ومن عادة صاحب روح المعاني أنه يرد على من ينقل رأيه عندما لا يوافقه، فعدم رده على الزمخشري دليل على موافقته معه في ذلك.

الثالث: الذكر والحذف في الشرط وجوابه؛ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ

وقال في تفسير آية من سورة غافر وهي: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾[٣٦] "فَإِلَينَا يُرجَعُون" يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم، وهو جواب "نَتَوَفَّيَنَّكَ"، وجواب "نُرِيَنَّكَ" محذوف مثل فذاك، وجوز أن يكون جواباً لهما على معنى أن نعذبهم في حياتك، أو لم نعذبهم فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب، ويدل على شدته الاقتصار على ذكر الرجوع في هذا المعرض. والزمخشري آثر في الآية هنا ما ذكر أولا"[٣٧].

أما العلامة الزمخشري فقال في تفسير هذه الآية: "فإن قلت: لا يخلو إما أن تعطف "أَو نَتَوَفَّيَنَّكَ" على "**نُرِيَنَّكَ**" وتُشركهما في جزاء واحد، وهو قوله - تعالى -"**فَإِلَينَا يُرجَعُونَ**" فقولك: "فإمّا نرينك بعض الذي نعدهم فإلينا يرجعون" غير صحيح، وإن جعلت "**فَإِلَينَا يُرجَعُونَ**" مختصاً بالمعطوف الذي هو "**نَتَوَفَّيَنَّكَ**، بقي المعطوف عليه بغير جزاء؟ قلت: "**فَإِلَينَا يُرجَعُونَ**" متعلق بـ"نَتَوَفَّيَنَّكَ"، وجزاء "نُرِيَنَّكَ" محذوف، تقديره: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب، وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك. أو إن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم منهم أشدّ الانتقام، ونحوه قوله - تعالى - ﴿فَإِمَّا نَذهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنهُم مُنتَقِمُونَ أَو نُرِيَنَّكَ الذى وَعَدناهُم فَإِنَّا عَلَيهِم مُقتَدِرُونَ﴾[٣٨].

هذان النصان متوافقان في المعنى والدلالة، صرح الإمام الآلوسي بالعلامة الزمخشري في إحالة حذف جواب الشرط إليه، ما يدل على تأثره به، وعبارة العلامة الزمخشري رغم وجازته واختصاره أوضح من عبارة الإمام الآلوسي.

الثالث: فائدة تنكير كلمة "لَيلًا" في الآية

قال الإمام الآلوسي في تفسير الكلمة المنكَّرة؛ "لَيلًا" في قوله تعالى: ﴿سُبحَانَ الَّذِي أَسرَى بِعَبدِهِ لَيلًا مِنَ المَسجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسجِدِ الأَقصَى الَّذِي بَارَكنَا حَولَهُ لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[٣٩] "وقوله تعالى: "لَيلاً" ظرف لأسرى، وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء

وأنها بعض من أجزاء الليل ولذلك قرأ عبد الله، وحذيفة "مِّنَ الليل" أي بعضه كقوله تعالى: "وَمِنَ اللیل فتَهَجَّد"(٤٠).

هذا هو المعنى الذي بيَّنه العلامة الزمخشري قائلا: "فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر الليل؟ قلت: أراد بقوله: "لَيلاً" بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة: "من الليل"، أي بعض الليل، كقوله: "وَمِنَ اللیل فتَهَجَّد بِهِ نَافِلَةً" يعني الأمر بالقيام في بعض الليل "(٤١).

إن الإمام الآلوسي قد تأثر بكثير من العلامة الزمخشري، والأمر بيَّنٌ من النماذج الثلاثة التي ذكرت، وهذا أسلوب روح المعاني، إنه جرى في تفسيره مجاري عديدة، أحيانا يصرح بمن ينقل كلامه وأحيانا لا يصرح به، كما فعل بصاحب الكشاف.

نتائج البحث

توصلت من خلال هذا المقال إلى عدة نتائج، أهمها:

١- معظم المفسرين البيانيين المتأخرين قد تأثروا بالعلامة الزمخشري في تحليل الآيات القرآنية تحليلاً بلاغياً، وعلى رأسهم القاضي البيضاوي، والعلامة أبو السعود، والإمام الآلوسي.

٢- العصر الذي عرف البلاغة التطبيقية قبل البلاغة التنظرية قد سماه المتأخرون بعصر الذوق والسليقة والفطرة.

٣- العلامة الجاحظ أول من تناول أساليب الكلام وفنونه وفتح باب البيان القرآني وتحدق عنه بما صار مؤخراً مصدراً لكل من تلاه.

٤- الأوائل من علماء البلاغة والبيان ركزوا تركيزاً شديداً على بلاغة كلام الله، وقاموا باستخراج المعاني واستنتاج الدلالات من خلال الترابط والتلاقح والتداخل البياني بين الآية والأخرى، وبذلك عرفوا أن البلاغة بلغت مبلغها حيث لا يبلغه شيء من كلام النثر.

٥- قد يشعر القارئ بالغموض والإبهام والخفاء عند القراءة في تفسير البيضاوي، ومن أجل هذا اضطر العلماء إلى وضع الشروح والحواشي وحواشي الحواشي عليه.

٦- استوعب أبو السعود كل ما جاء في المتون والشروح والفنون في تفسير الآخر متأثراً بالعلامة الزمخشري، والقاضي البيضاوي وغيرهما إلا أنه لم يقلد السابقين تقليداً محضاً بل أضاف إلى كلامهم نكتاً لطيفة تقوم على أسس النحو والمنطق والبلاغة وغيرها من الفنون الأخرى.

٧- الإمام الآلوسي كان من المهرة في العلوم البعربية، خاصة في النحو العربي والبلاغة العربية، فاستخرج المعاني النفيسة من الآيات القرآنية واستوضح بلاغتها من خلال المقارنة بين النصوص الأدبية في المعاني والتراكيب والنكت والمعارف.

٨- قد تعرض ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" إلى كثير من وجوه البيان، أهمها: الاستعارة، والتمثيل، والتقديم والتأخير، والكناية، والإخفاء والإظهار، والتغليب.

الهوامش

١- إبن قتيبة، عبد الله بن مسلم ،أبو محمد ، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط: ١، عام ٢٠٠٦م-١٤٢٧هـ مكتبة دار التراث، القاهرة-مصر ، ص ٢٠-٢١.
٢- حاجي خليفة، كشف الظنون عن آسامي الكتب والفنون، تحقيق: محمد شرف الدين، ط:١، (ب ت)، دار إحياء التراث العربي، القاهرة - مصر ، ج ١، ص ١٨٧.
٣- أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكهنوي الهندي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، تحقيق: السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعماني، ط:١، عام ١٣٢٤هـ دار المعرفة، بيروت – لبنان ، ص ٨١.
٤- علي بن بالي المعروف بـ"منقّ"، العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم، ط: ١، عام ١٩٧٥م-١٣٩٥هـ دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان ، ج ٢، ص ٢٨٩.
٥- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ط: ٢، عام ١٩٧٦م – ١٣٩٦ هـ دارالكتب الحديثة، القاهرة – مصر ، ج ١، ص ٣٤٩-٣٥٠.
٦- التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٣٥٢.
٧- سورة النساء، ٤: ١٤٧.
٨- ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (البيضاوي)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى، عام ١٤١٨هـ دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ص ١٣٣.
٩- الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعة الثالثة، عام ١٤٠٧هـ دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ج ١، ص ٥٠٥.
١٠- سورة المائدة، ٥: ٤٨.
١١- البيضاوي، ص ١٥٢.
١٢- الكشاف، ج ١، ص ٣٣.
١٣- سورة فاطر، ٣٥: ٣٧.
١٤- البيضاوي، ص ٥٧٩.
١٥- الكشاف، ج ٣، ص ٦٣٧.
١٦- سورة يونس، ١٠: ٥٠.
١٧- البيضاوي، ص ـ٢٨١.
١٨- الكشاف، ج ٢، ص ٣٦٦.
١٩- سورة الأعراف، ٧: ٨٠.
٢٠- أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (ب.ت)، دا إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ج ٢، ص ٢٦٨.
٢١- الكشاف، ج ٢، ص ١٧٣.
٢٢- سورة النور، ٢٤: ٤٥.
٢٣- تفسير أبي السعود، ج ٣، ص ٣٥٥.
٢٤- الكشاف، ج ٢، ص ٤٤.
٢٥- سورة الإسراء، ١٧: ١٠١.
٢٦- تفسير أبي السعود، ج ٤، ص ١٠١.
٢٧- الكشاف، ج ٣، ص ٣٠٠.
٢٨- سورة آل عمران، ٣: ٥٩.
٢٩- تفسير أبي السعود، ج ١، ص ٣٧٢.
٣٠- الكشاف، ج ١، ص ٣٢٣.

۳۱- سورة المائدة، ٥: ٧٣.
۳۲- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الطبعة الأولى، عام ١٤١٥ هـ دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ج ٦، ص ٥١١.
۳۳- الكشاف، ج ١، ص ٥١.
۳٤- سورة الأعراف، ٧: ٤٦.
۳٥- روح المعاني، ج ٨، ص ٥٠٩.
۳٦- سورة غافر، ٣٩: ٧٧.
۳۷- روح المعاني، ج ٢٤، ص ٤٦٦.
۳۸- الكشاف، ج ٣، ص ٩٨.
۳۹- سورة الإسراء،١٧: ١
٤٠- روح المعاني، ج ١٥، ص ٨.
٤١- الكشاف، ج ٢، ص ١.

نقصان نہ پہنچانا

قال رسول اللہ ﷺ

لاَ ضَرَرَ وَ لاَ ضِرَارَ

(رسول اکرم ﷺ نے فرمایا: نہ کسی کو نقصان پہنچاؤ اور نہ نقصان پہنچانے کا ذریعہ بنو)

(مسند احمد:۲۸۶۵)